بسم الله الرحمن الرحيم

ليس للعيون
وليس لكل أحد
من وجدها فليحفظها
ومن ضيعها فليتحمل
عواقب الفقدان



سر المرايا

مذكرات و تأملات
في الذات و القوة و اللذة و الحقيقة

"من عرف نفسه
ملك كل شيء"



الحق طريق
والصبر سلاح
والصمت عرش.

سنة ١٣٤٥هـ
من شهر ربيع الأخر
كتب في ظلمة الليل

كتاب

سرّ المرايا

في كشف الأزمنة والعوالم النظيرة

وهو كتاب في صفات المرايا وما تردّه من الصور
وما تحفظه من الآثار وما يظهر فيها من أحوال الناظرين
ولمع الحوادث وصور العوالم التي تشاكل عالم الحس وتخالفه

منسوب إلى

أبي الحسن علي بن يونس الحرّاني

المعروف بابن المرايا

جمع متفرّقه وحرّر نصّه

أبو البركات محمد بن عبد الرحيم الموصلي

فهرس الكتاب

في النسبة والتحرير

هذا كتاب سرّ المرايا في كشف الأزمنة والعوالم النظيرة، وهو نصّ منسوب إلى أبي الحسن علي بن يونس الحرّاني، المعروف في بعض الأوراق والحواشي بلقب ابن المرايا.

والذي بين أيدينا من هذا الكتاب ليس أصلًا تامًّا محفوظًا، ولا نسخة واحدة سالمة من السقط والاضطراب، بل هو مجموع محرّر من أوراق متفرقة وتعاليق منثورة ونقول متباعدة، تدور كلها على باب المرايا وما يتصل بها من ردّ الصور وبقاء الآثار وظهور الأحوال ولمع ما خفي من الحوادث والإشارة إلى ما سمّاه المؤلف في بعض المواضع بالعوالم النظيرة.

وقد قوبلت هذه الشذرات ما أمكن، ورُدّ بعضها إلى بعض، وجُمعت الألفاظ التي يجمعها نسق واحد، وحُذفت الزيادات التي ظهر فيها تصرّف النساخ أو بعدت عن روح الكتاب، وأُثبت من النصوص ما اعتضد نظيره وتقاربت عبارته وجرى على طريقة واحدة في التقسيم والمقصد.

وأما نسبة الكتاب إلى أبي الحسن علي بن يونس الحرّاني فلم تثبت من طريق أصل تام مؤرّخ، ولكنها وردت في مواضع متعددة، منها صدر ورقة قديمة جاء فيها» :هذا من كتاب سرّ المرايا لأبي الحسن علي بن يونس الحرّاني«، وفي موضع آخر :

نقلت من كلام ابن المرايا .«وهي شواهد لا تبلغ القطع، غير أنها » تقوي النسبة إذا ضُمّ بعضها إلى بعض.

فالكتاب، في صورته الحاضرة، تحرير حديث لنص قديم مفقود الأصل في الجملة، بقيت منه أوراق متناثرة، فجمعت شتاته، وقُرّب لفظه، وأُثبت من شواهده ما تيسّر.

ترجمة المؤلف المنسوب إليه الكتاب

هو أبو الحسن علي بن يونس الحرّاني، ويُعرف في بعض الأوراق بلقب ابن المرايا .ويظهر من مجموع ما بقي من أخباره أنه كان من أهل الصنعة والنظر معًا :اشتغل بالصفائح المصقولة والسطوح العاكسة وخواص الزجاج والأجسام الصقيلة، ولم يقف عند حدود الصناعة اليدوية، بل جاوزها إلى تأمل ما تعرض له المرايا من تفاوت في الردّ وما يختلف فيها من صدق وتلبيس وما قد يثبت على صفحاتها من أثر.

وتشير بعض التعاليق إلى أنه أخذ أوائل هذه الصناعة عن شيخ من أهل الصقل والصفائح، ثم خالط بعد ذلك قومًا من أصحاب الهيئة والحكمة، فاجتمع له ما لا يجتمع لكثير من الصناع :خبرة اليد، وصبر التجربة، وميل الفكر إلى تجاوز الظاهر إلى ما وراءه.

ولا يعرف له تصنيف كثير مشهور، بل الغالب على ما بقي منه أنه كان صاحب أوراق ورسائل وملاحظات متفرقة، يُودع فيها ما يثبت له من التجارب أو ما يغلب على ظنه بعد طول التتبع. وربما كان هذا أحد أسباب تفرق الكتاب واختلاط بعض أبوابه بما ألحق به لاحقًا من الزيادات.

مقدمة الجامع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي جعل في ظاهر الأشياء بواطن لا يقف عليها كل ناظر، وأودع في بعض الصنائع من الخفايا ما لا ينكشف إلا لمن أطال الفكر وصبر على التجربة ولم يكتف من العالم بسطحه المكشوف .والصلاة على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن هذا الكتاب من الكتب التي كثرت الإشارة إليها، وقلّ من وقف منها على نص محرر، حتى كاد يكون في حكم ما يذكر أكثر مما يرى، ويتحدث به أكثر مما يضبط .وقد كنت أسمع بذكره من بعض أهل الوراقة ومن قوم لهم عناية بأوراق المتقدمين، فيقولون :إن فيه كلامًا في المرايا ليس من جنس ما اعتاده الناس، لأنه لا يقتصر على رد الصورة، ولا يقف عند حدود الصقل والزجاج، بل يجاوز ذلك إلى ما تحفظه المرايا من الآثار وما ترده من الأحوال وما يلوح فيها من وجوه خفية لا تدركها العين المستعجلة.

ثم وقع إليّ بعد طول الطلب عدد من الأوراق المفردة، مختلفة الأحوال :منها ما بقي أوله وذهب آخره، ومنها ما ثبت آخره وسقط صدره، ومنها ما دخله تصرّف ناسخ لا يحسن الباب، ومنها ما لحقه من الحواشي ما يلتبس بالنص حتى لا يميّز إلا بمقابلة وروية.

فلما جمعت هذه الأوراق ونظرت فيها نظر من لا يعجل إلى القبول ولا إلى الرد، وجدت بينها نسبًا ظاهرة في العبارة وترتيب المعنى وتكرار الألفاظ، مثل قولهم :ردّ الوجه، وردّ الحال، وبقاء الأثر، والمرآة الصادقة، والمرآة الملبسة، والعوالم النظيرة .فغلب على ظني أنها ترجع إلى أصل واحد.

ولم يكن قصدي من جمع هذه الأوراق أن أدّعي أن الأصل قد عاد كاملًا، وإنما قصدت تقريب هذا الباب، وردّ متفرقه إلى أبواب تعرف بها طريقته، ويقف القارئ من خلالها على صورة هذا الفن بعد أن كان موزعًا بين نتف يصعب فهمها في حال تفرقها.

الباب الأول

في أن الصورة لا تفنى من صفحة المرآة كما يظن العامة

يظن أكثر الناس أن الصورة لا تبقى في المرآة إلا ما دام الشخص واقفًا بإزائها، فإذا انصرف عنها زال أثره وانقطع حكم صورته منها، وعادت الصفحة كما كانت قبل النظر. وهذه النظرة تكفي في ظاهر الاستعمال اليومي، لكنها عند أصحاب هذا الفن نظرة ناقصة؛ لأنها تبني حكمها على ما يظهر للحس في اللحظة، ولا تنظر فيما قد يبقى من الأثر بعد انطفاء الظهور.

وليس مراد أهل هذا الباب أن الصورة تبقى في المرآة بقاء ظاهرًا كالحروف في الرق أو النقش في الحجر، بل المراد أن للصورة أثرًا لطيفًا لا يدرك دائمًا، ولا يظهر لكل ناظر، ولا يبقى على مرتبة واحدة، بل يضعف ويقوى ويخبو ويظهر بحسب صفاء السطح وطول الاستعمال وهيئة الضوء وطبيعة المقابلة.

ولهذا يفرق هذا الكتاب بين ردّ الصورة وبقاء الأثر؛ فردّ الصورة هو الذي تدركه العامة، وأما بقاء الأثر فهو أن يظل من المقابلة شيء لا يزال متعلقًا بسطح المرآة بعد انصراف الناظر، حتى إذا عاد إليها في حال مخصوصة ومع ضوء مخصوص لاح له من ذلك الأثر ما لا يراه في غيرها.

رواية في بقاء الأثر

ومما رُوي في هذا الباب ما حدّثتني به أمّ الحسن زينب بنت عيسى بن عبدون الموصليّة، وكانت امرأة رزينة من بيت معروف بالستر واليسار، تقيم في الجانب الشرقي من الموصل، ولم تكن من النساء اللواتي يكثرن الخوض في الغرائب، بل كانت مشهورة عند جاراتها بحسن الهيئة وقلة الكلام وشدة التثبت فيما تقول .وكانت، على ما ذكرت، من المداومات على النظر في مرآة صغيرة ورثتها عن أمها، تتعاهد بها وجهها عند الصباح، لا للزينة وحدها، بل لتقف منها على أثر السهر وتغيّر اللون وما يعرض للوجه من تعب أو صفاء.

قالت :كانت لي مرآة صغيرة معلقة في صدر مخدعي، في موضع لا تكاد تبلغه يد غيري، ولا أغيّر جهتها إلا نادرًا .وكنت أنظر فيها كل صباح عند أول الضوء، فأصلح بها خِماري وأجمع بها شعري وأقف على هيئة وجهي قبل أن أخرج إلى أهل داري . وقد أقامت تلك المرآة في موضعها سنين، حتى صرت أعرف صفحتها كما يعرف المرء باب بيته ومفصل نافذته.

ثم نزل بي في بعض الأعوام مرض أضعفني أيامًا طويلة، فانقطعت عن عادتي، وقلّ نظري فيها، حتى إذا خفّ عني بعض ما كنت أجد، قمت إليها في آخر نهار وكان الضوء مائلًا والسكون شديدًا وليس في البيت غيري .فنظرت فيها، فرأيت من صورتي

شيئًا لم يطمئن له قلبي، إذ خُيّل إليّ أن الصفحة لا تردّ وجهي على ما أنا عليه في تلك الساعة وحدها، بل يداخل ردّها أثر من هيئة أعرفها من نفسي قبل علتي :ميل الرأس قليلًا، وإمالة العنق إلى جهة اليمين، وارتفاع اليد كأنها تريد أن تبلغ طرف الخمار.

فوقفت مليًّا، ثم خفضت يدي وعدّلت قامتي وعدت أنظر، فذهب ذلك اللمح .فقلت في نفسي :هذا من ضعف البصر، أو من أثر المرض إذا طال بصاحبه .ثم انصرفت ولم أحدث به أحدًا، لأني كرهت أن أكون ممن يعجلون إلى الظن.

فلما كان بعد يومين، عدت إليها في الساعة نفسها تقريبًا، فإذا ذلك المعنى يعود، أخف من الأول قليلًا، لكنه أوضح عندي من أن أدفعه كله .ولم أر صورة قائمة تامة حتى أقول إنها بقيت في المرآة، لكني رأيت ما يشبه البقية أو الأثر الضعيف، كأن الصفحة حفظت من هيئتي الماضية شيئًا لم يذهب كله بذهابي.

ثم تعمدت بعد ذلك أن أقف منها على الهيئة التي كنت أعتادها قبل مرضي، وأطلت الملاحظة أيامًا، فوجدت أن ما كنت أتوهمه وهمًا يعود على وجه يقرب بعضه من بعض، حتى غلب على ظني أن للمرآة مع التكرار وثبات الموضع شأنًا ليس لسائر الأجسام، وأن الصورة وإن ذهبت عن الحس بذهاب صاحبها، فليس يلزم من ذلك أن يذهب كل أثرها من الصفحة.

قال الجامع :وفي هذه الحكاية وجه حسن، لأنها لم تحمل أول ما رأت على القطع، بل ردّته أولًا إلى ضعف البصر وأثر العلة، ثم عادت إلى الاختبار حتى تكرر لها من المعنى ما قوّى عندها أصل الباب.

الباب الثاني

في المرايا التي تردّ الوجه، والمرايا التي تردّ الحال

المرايا في ظاهر الاستعمال شيء واحد :ينظر فيها الإنسان فيرى وجهه ويصلح بها هيئته .غير أن هذا الكتاب يميز بين مرتبتين :مرايا تردّ الوجه، ومرايا تردّ الحال .فالأولى تكشف الخطوط والملامح الظاهرة، وأما الثانية فتجمع من هيئة الوجه والنظر وميل الرأس وسكون القسمات أو اضطرابها ما يجعلها .ترد إلى صاحبها صورة أكثر شمولًا لحاله في تلك اللحظة

ولهذا قد ينظر الرجل أو المرأة في مرآة من هذا النوع فيرى نفسه متماسك الظاهر، ثم لا يلبث أن يشعر بأن شيئًا في وجهه يوحي بقلق أو تعب أو حذر لم يكن قد اعترف به بعد .والمرآة هنا لا تخلق معنى من عندها، بل تجمع الإشارات الدقيقة التي لا يلتفت إليها صاحبها في نظره العادي، ثم تردّها إليه في صورة يصعب .إنكارها متى تكررت

رواية في ردّ الحال

ومما يُذكر في هذا الباب ما حدّثتني به فاطمة بنت عبد الجبار بن سليم الأنصارية، وكانت امرأة من أهل الستر والعقل، معروفة بين نساء حارتها بثبات الجأش وحسن التماسك عند الشدائد، حتى كانت تُستدعى أحيانًا لفضّ ما يقع بين النساء من خصومة .ولم

تكن من اللواتي يكثرن التزين، إلا على قدر ما يحتاج إليه من ترتيب الخمار وإصلاح الهيئة.

قالت :كان لي في بيتي مرآة قائمة في صندوق صغير، أخرجها إذا نزل بي أمر أحتاج معه إلى جمع نفسي، لأني كنت أجد في النظر إليها شيئًا يعينني على الوقوف على حالي قبل أن أظهر للناس.

وكان ذلك في يوم دخل عليّ فيه خبر رجل من قرابتي، كان قد غاب عنا زمنًا طويلًا، ثم قيل إنه عاد إلى البلد، وأنه سيحضر إلى البيت في آخر النهار .ولم يكن بيني وبينه شأن يذكره الناس، غير أن في النفس من خبره ما لا يسهل وصفه :شيء من المودة القديمة، وشيء من العتب، وشيء من الوحشة التي تحدثها الغيبة الطويلة إذا رجع صاحبها على غير انتظار.

فلما قرب الوقت، قمت أصلح ثوبي وأشد خِماري وتهيأت للجلوس مع النساء في صدر البيت، وكنت أظن أني قد ضبطت نفسي .ثم أخرجت المرآة على عادتي ونظرت فيها، فإذا بي أرى من وجهي ما لم أكن أريد أن أراه :كان في العينين شيء من الانكماش، وفي الفم ضيق يسير، وفي الجبين جمع خفي، كأن الصورة كلها تقول ما كنت أُنكره على نفسي.

فأنكرت ذلك أولًا وظننت أني أتوهم، ثم عدت إليها بعد قليل فإذا المعنى بعينه قائم، لا على وجه الفضيحة، ولكن على وجه أعرف به أن قلبي ليس كما كنت أزعم.

وما هي إلا ساعة حتى دخل الرجل، وجلست مع الجالسات كما اعتدت في مجالس كثيرة قبلها .فلما وقع بصري عليه بعد طول غيبته، وجدت في صدري من الانقباض ما لم أكن قد اعترفت به قبل ذلك، وانقطع كلامي لحظة، ثم اضطربت يدي اضطرابًا خفيًّا رأته مني امرأة كانت إلى جانبي .فعلمت أن المرآة كانت أصدق مني في أول النهار، وأنها ردّت إليّ حالي قبل أن يفتضحها الموقف.

قال الجامع :وهذه الحكاية من أحسن ما يُحتج به في الفرق بين ردّ الوجه وردّ الحال؛ لأن المرآة لم تزد في وجه المرأة شيئًا لم يكن فيه، لكنها أظهرت من هيئة جمعه ما دل على أمر كامن فيها، كانت تظن أنها قد أخفته.

الباب الثالث

في مرايا المواضع، وكيف تُري ما جرى في البيت قبل ساكنه

إذا جاز أن تحفظ المرآة من الشخص شيئًا من أثره، لم يبعد عند المؤلف أن تحفظ من الموضع أيضًا نصيبًا مما يمرّ به .وهذا باب من أغرب أبواب الكتاب، لأنه ينتقل من علاقة المرآة بالوجه المفرد إلى علاقتها بالبيت والمجلس والمكان الذي تستقر فيه.

فالموضع عنده ليس حيادًا صرفًا، بل هو شيء يكتسب بطول المكث فيه هيئة عامة، ويغلب عليه من أحوال ساكنيه ما يترك فيه أثرًا .فإذا استقرت المرآة في موضع واحد سنين، أمكن أن تحمل من طبع البيت ما لا تحمله المرآة كثيرة النقل.

رواية في أثر جريمة قديمة

ومما رُوي في مرايا المواضع ما حدّثني به أبو الفرج يوسف بن سليم النحاس، وكان رجلًا معروفًا بحسن الصنعة، متوسط الحال، لا يُعرف عنه تعلّق بالغرائب .وكان قد اشترى دارًا قديمة في طرف من أطراف الموصل، بعد أن ظلت سنين تُؤجر مرة وتُترك أخرى، حتى شاع بين أهل الحي أنها دار ثقيلة المقام، مع أن أحدًا لم يكن يذكر لذلك علة بينة، إلا كلامًا متفرقًا عن امرأة ضاعت قديمًا ثم انقطع خبرها.

قال :لما دخلت الدار أول مرة، لم أر فيها ما يوجب ريبة إلا ما يكون في أكثر الدور القديمة من كلال الجدران وسكون الهواء وكثرة الغبار في الزوايا .وكان في الطبقة العليا مخدع صغير، في جداره مرآة كبيرة قديمة، مثبتة في موضعها تثبيتًا أحكم من سائر ما في البيت.

فأمرت بكنس الغرفة وفتحها، ثم عدت إليها بعد أيام عند آخر النهار، وكان الضوء داخلًا من الشباك دخولًا مائلًا .فوقفت بإزاء المرآة، فرأيت فيها الغرفة على حالها، غير أني وجدت في أحد أركانها شيئًا من الكآبة والانقباض، وكأن الركن الذي يلي الصندوق الخشبي القديم أشد ظلمة في صفحة المرآة مما هو في الحس.

ثم صعدت إليها في يوم آخر، فرأيت من ذلك الركن بعينه ما أنكرتُه :لم أر شخصًا تامًّا، لكني رأيت ما يشبه انحناءة سريعة عند أسفل الجدار، كأن أحدًا يجرّ شيئًا أو ينحني على شيء، ثم يذهب ذلك قبل أن يثبت بصري عليه.

فلما كان بعد يومين، عدت ومعي مصباح، فعاد إليّ المعنى نفسه غير أنه كان هذه المرة أوضح وأشد إزعاجًا :رأيت في المرآة كأن طرف ثوب داكن اللون ينسحب عند الركن ثم يختفي . فنزلت من ساعتي، وسألت عجوزًا من جيران الدار كانت قد أدركت بعض أهلها، فذكرت لي أن امرأة كانت تسكن هذا البيت

قبل سنين بعيدة، ثم قيل إنها خرجت لزيارة أهلها ولم تعد، وأن الناس اختلفوا فيها، ومنهم من كان يتهم زوجها في السر ثم لا يثبت على شيء.

فعُدت في الغد ومعي رجلان من أصحابي، وتأملنا الركن الذي كانت الصفحة ترده على تلك الهيئة، فلم نجد في ظاهره شيئًا، غير أني لما ضربت بخشبة على أسفل الجدار سمعت صوتًا أخف من سائر المواضع .فنزعنا بعض اللبن من أسفله، فإذا خلفه فرجة صغيرة، وفيها خرقة بالية قد اسود لونها، وخاتم امرأة، وعظم دقيق بان لبعض من حضر أنه من بقايا ساعد أو كف.

قال الجامع :وهذه الحكاية من أقوى ما يُستشهد به في باب مرايا المواضع؛ لأن المرآة شدّت نظر الساكن الجديد إلى ركن بعينه، وكررت له فيه معنى واحدًا حتى قاده ذلك إلى التفتيش، ثم إلى ظهور ما كان مطمورًا.

الباب الرابع

في المرايا التي يقع فيها نظر الناظر على صورته في صباه أو هرمه

من أعجب ما يذكره المؤلف أن بعض المرايا قد لا تردّ الناظر على صورته الحاضرة وحدها، بل تبرز من وجهه وهيئته ما يقربه من طور آخر من أطواره :كأن يرى نفسه أميل إلى صباه، أو أقرب إلى هرمه، أو تظهر له من ملامحه نسبة كانت كامنة فيه ولم تكن بارزة في نظره العادي.

ولا يعني ذلك أن المرآة تنقل الزمن، بل المقصود أن الوجه الواحد يحمل في كل طور منه بقايا مما سبقه ومقدمات لما سيلحقه، ومن المرايا ما يجمع هذه الإشارات ويقويها حتى تبدو للناظر أوضح مما هي في النظر اليومي.

رواية في غلبة طور الشباب

ومما يُروى في هذا الباب ما حدّثتني به أمّ الربيع خديجة بنت يونس بن حسان الحرّانية، وكانت امرأة قد جاوزت الأربعين يوم حدثتني، مشهورة في شبابها بحسن الصورة واعتدال القامة ولين الحركة، حتى كان من رآها يذكر صفاء وجهها قبل أن يذكر حليّها .ثم أدركتها السنون بما تدرك به أكثر الناس من فتور النضارة، غير أنها بقيت مع ذلك جميلة الهيئة حسنة التماسك.

وكانت قد ورثت عن أمها مرآة قديمة من زجاج صقيل في إطار من خشب داكن، تحفظها في صندوق ثيابها، ولا تخرجها إلا في أوقات مخصوصة، لأنها كانت ترى أن صفحتها أصدق من سائر ما دخل بيتها بعد ذلك من المرايا.

قالت: كنت في صباي أكثر نظرًا في تلك المرآة، لا لولع فارغ بالزينة، ولكن لأن صفحتها كانت ترد إليّ صورتي على هيئة أعرفها وأطمئن إليها. ثم مضت السنون وشغلتني أمور البيت والولد، حتى إذا جاوزت سن الشباب الأول وعدت إليها ذات يوم عند ضوء العصر، رأيت من صورتي ما أدهشني وأقلقني معًا.

رأيت وجهي أردّ، وخدي أصفى، وعيني أحدّ، وعنقي أميل إلى الطول والاستواء، بل خُيّل إليّ أن القامة كلها قد عادت في الصفحة إلى ما كانت عليه في أول أمري: أخف، وأشد اعتدالًا، وأقرب إلى النضارة التي لا يجتمع معها ما اجتمع بي بعد ذلك من سكون وثقل.

ثم عدلت وقوفي، وكشفت عن وجهي أكثر، وأصلحت طرف خِماري عند العنق، فرأيت أن الصفحة لا تردّ الوجه وحده، بل ترد اجتماع الجسد على هيئة أخرى: كان ما ظهر من العنق أصفى، وما بدا من أعلى الصدر أمتن، وما لاح من استقامة الظهر أشد مما أعرفه من نفسي في تلك الأيام.

قالت :فقبضت على ثوبي عند صدري من غير شعور، لا من برد ولا خوف، ولكن من هيبة ما رأيت، كأن المرآة كشفت لي من نفسي ما كنت أحتفظ به في الذاكرة على جهة الظن، ثم ردته عليّ على جهة اللمح .ثم لم يلبث الضوء أن تغير، فعادت الصورة إلى حالي المعروفة .فعرفت أن الذي رأيته لم يكن ثابتًا ثبوت الصورة المعتادة، بل كان شيئًا عارضًا ظهر ثم انحسر.

قال الجامع :وهذه الحكاية من أنفس ما يُروى في هذا الباب؛ لأن المرآة لم ترد المرأة إلى زمن مضى على وجه المحال، لكنها غلّبت في ردّها بعض ما بقي من نسب الشباب الكامنة في الوجه والجسد، حتى ظهر لها الفرق بين الطورين ظهورًا لم تكن تدركه من نفسها على هذا الاجتماع.

الباب الخامس

في المرايا التي تُري الحادث قبل وقوعه على جهة اللمع لا البيان

ليس في هذا الكتاب دعوى أن المرآة تكشف الغيب كشفًا صريحًا، ولا أنها تعلم ما لم يقع على نحو مفصل .لكن المؤلف يرى أن بعض المرايا قد تظهر بوادر الحادث قبل تمامه، لأن الحوادث لا تقع دفعة واحدة، بل تبدأ غالبًا في الوجوه والأمزجة والنيات واضطراب الهيئة، قبل أن تصير فعلًا ظاهرًا.

ولهذا شدد المؤلف على عبارة اللمع لا البيان .فالمرآة قد تلمح وقد تشير، لكنها لا تعطي خبرًا مفصلًا .ومن قرأ هذا الباب على غير ذلك ضلّ وفتح على نفسه باب الوهم.

رواية في انكشاف حادث قبل تمامه

ومما رُوي في هذا الباب ما حدّثني به أبو القاسم عبد الرحمن بن هاشم التميمي، وكان رجلًا من أهل الوقار، معروفًا بحسن السمت وقلة الظنون، وشدة التحفظ في الحكم على الناس .وكان صاحب تجارة في الأقمشة، ولم يكن من أهل الغيرة المفرطة، بل يأنس بسكون بيته ويعدّ انتظامه من نعم الله عليه.

قال :كان في بيتي مرآة قائمة في موضع بين المخدع والمجلس الداخل .ثم إني قمت إليها في بعض الأيام عند خروجي، لا لشيء

إلا لأصلح عمامتي، فرأيت في صورتي ما أنكرتُه، لا من جهة الملامح، ولكن من جهة اجتماع الوجه كله؛ كان كأن في الردّ تشتتًا خفيًا أو انكسارًا لا يثبت عليه البصر طويلًا، حتى خُيّل إليّ أن صورتي ليست على عادتها من الطمأنينة.

فلما رجعت عند آخر النهار، مررت بالموضع نفسه، فنظرت في المرآة ثانية، فرأيت وراءي من صورة البيت شيئًا لا أستريح له :لم يكن شخصًا ولا ظلًا تامًا، لكن كان في ناحية الستر الداخل اضطراب يسير، كأن الصفحة ترده على غير الهيئة التي أعرفها . فالتفتُّ إلى الستر في الحس فرأيته ساكنًا .فنسبت الأمر إلى ميل الضوء ومضيت.

ثم مضت أيام على هذا، لا يظهر فيها شيء يوجب القول، غير أني بدأت أجد في البيت أمورًا صغيرة لا يقوم واحد منها حجة : ريح طيب رجالي على ستر لا أستعمله، واضطراب يسير في الفراش عند وقت لم أكن فيه حاضرًا، وكأس ثانية في موضع لا توضع فيه عادة .فكنت كلما هممت أن أقول :هذا ظن لا أصل له، عدت إلى المرآة فرأيت فيها من انكسار جمعي واضطراب صورة البيت ما يمنعني من إراحة نفسي إلى النفي.

ثم كان بعد نحو أسبوع أن رجعت ليلًا من مجلس صاحب لي، وقد نسيت عنده كيسًا فيه حساب، فدخلت من باب السطح لأن المفتاح كان معي .فلما صرت إلى المخدع، لم أجد أحدًا، لكني

وجدت المصباح مطفأ حديثًا، والهواء في الموضع يحمل من ذلك الطيب الرجالي بعينه ما لا يخطئه أنفي .ففتشت الموضع على مهل، فلم أجد شخصًا، غير أني وجدت خلف الصندوق الكبير ورقة مطوية قد أُدخلت في شق الخشب إدخالًا متعجلًا .ففتحتها، فإذا فيها كلمات قليلة، لكنها دلّت على مخاطبة قديمة ومواعيد متكررة وخوف من انكشاف الأمر.

ثم استثبت بعد ذلك من الجارية على مهل، فزلّ لسانها واعترفت بما كانت تكتمه من تردد رجل إلى البيت في ساعات ظننت أني لا أرجع فيها .قال :فعندها فقط فهمت ما كانت ترده إليّ المرآة في الأيام الماضية .فإنها لم تقل لي إن فلانًا يدخل، ولا كشفت لي وجه الرجل، لكنها كانت تظهر لي أن البيت قد اختل قبل أن أعرف موضع اختلاله، وأن في صورتي أنا من التشتت ما يسبق العلم بالمصيبة.

قال الجامع :وهذه الحكاية من أليق ما يُذكر في هذا الباب، لأن المرآة لم تكشف الحادث كشفًا صريحًا، وإنما ردّت بوادره قبل تمام ظهوره .فلما تبعت ذلك قرائن الحس تبين أن اللمع الذي رأته المرآة كان سابقًا للعلم، لا مغنيًا عنه.

الباب السادس

في العوالم النظيرة، وهل صورة المرآة باب إليها أو دليل عليها

هذا الباب هو أغمض أبواب الكتاب .والمقصود بالعوالم النظيرة ليس عوالم كاملة منفصلة، بل وجوه من الإمكان قريبة من هذا العالم، تشاكله في أكثر أمره وتخالفه في بعض التفاصيل.

فكل موضع وكل شخص وكل حادث كان يمكن أن يكون على صورة غير التي استقر عليها إذا تغير سبب يسير من أسبابه . والمؤلف يرى أن بعض المرايا قد تلمح في لحظات مخصوصة إلى هذه الصور الممكنة :لا على جهة الانتقال الكامل، بل على جهة الإشراف أو المقاربة.

رواية في بيتٍ لم ينطفئ

ومما رُوي في هذا الباب ما حدّثني به أبو عبد الله إسماعيل بن سهل الورّاق الدمشقي، وكان رجلًا من أهل الأدب والنسخ، حسن العقل، قليل الدعوى، معروفًا بأنه لا يُسرع إلى تصديق الغريب . وكان قد تزوج في أول عمره امرأة يقال لها مريم بنت ثابت، فعاش معها أعوامًا هادئة حتى أدركتها حمى شديدة فماتت بعد أيام قليلة، وانقطع بموتها من البيت نور كان صاحبه لا يعرف قدره إلا بعد ذهابه.

قال: لم أتزوج بعد مريم، وأبقيت كثيرًا من متاعها على ما كان: صندوقها الصغير، ومسرجتها النحاسية، وبعض أثوابها المطوية، ومرآة قائمة كانت تقف عندها إذا أصبحت تصلح بها شعرها. وكانت تلك المرآة بعد موتها أثقل الأشياء عليّ، حتى إني لم أزلها من موضعها، ولم أكثر النظر فيها.

ثم مضى على وفاتها نحو ثلاث سنين. وفي بعض الأمسيات من آخر الشتاء، قمت إلى المرآة عند الغروب، فرأيت الغرفة كما أعرفها، غير أني أنكرت أمرًا صغيرًا: رأيت في صفحتها المسرجة مضيئة، مع أني كنت أعلم يقينًا أني لم أوقدها بعد. ثم تكرر لي بعد أيام ما هو أظهر من هذا: رأيت في المرآة الستر معقودًا من جانبه الأيسر، مع أني منذ موت مريم لم أعد أربطه على تلك الهيئة.

ثم مضت على هذا الحال ليال متفرقة: مرة أرى في الصفحة الصندوق مفتوحًا قليلًا وهو عندي مغلق، ومرة أرى عند طرف السرير منديلًا أبيض أعرف أنه كان من مناديل مريم، ومرة أرى في انعكاس الموضع هيئة البيت أكثر حياة مما هو عليه: كأن الهواء ألين، وكأن الأشياء مستعملة الآن لا محفوظة من زمن.

حتى كان في ليلة من ليالي الربيع، وقد جلست وحدي بعد طول سهر، فنظرت في المرآة فرأيت طرف امرأة عند موضع المسرجة: لم أر وجهًا صريحًا، بل رأيت انحناءة كتف أعرفها،

وبياض يد تمتد إلى الفتيل .ثم لم تلبث الصفحة بعد تلك اللمحة أن ردّت إليّ ما هو أشد منها :رأيت نفسي أنا في المرآة جالسًا في الموضع نفسه، لكن لا على هيئتي التي كنت عليها في تلك الساعة، بل على هيئة رجل أخف حزنًا، أهدأ وجهًا، كأن الزمن مضى به في بيت لم تدخله الوحشة التي دخلت بيتي.

ثم فهمت بعد تكرار ذلك أن المرآة لا ترد إليّ زوجتي على جهة الزيارة، بل تكشف لي وجهًا آخر من البيت نفسه، وجهًا لو لم تقع فيه تلك الحمى لربما صار هو عالمي وأنا فيه .وكان أشد ما آذاني من ذلك أن الفرق بين العالمين لم يكن عظيمًا فاضحًا، بل يسيرًا في ظاهره، قاتلًا في معناه :مسرجة موقدة بدل مطفأة، ستر مربوط كما كانت تربطه، ووجه لي أنا لم أعرفه بعد الترمل.

قال الجامع :وهذه الحكاية من أصدق ما يوضح معنى العوالم النظيرة؛ فإن المرآة لم تنقل الرجل من عالمه، ولم ترد إليه زوجته ردّ الأحياء، بل أظهرت له بيتَه نفسه على وجه آخر قريب، كأن الموت لم يمرّ به على الصورة التي مرّ بها في عالمه .فهي بهذا دليل على النظير، لا باب إليه.

الباب السابع

في آداب النظر في المرآة لئلا يختلط عالم الحس بعالم المثال

إذا كان هذا الباب قائمًا على دقائق من النظر، لم يكن بد من آداب تضبطه .فالمرآة لا تعمل منفردة عن الناظر، بل تشترك معها النفس والضوء والموضع وحال البدن وطول التحديق أو قصره . ومن أهمل هذه الأمور اختلط عليه ما هو من نفسه بما هو من المرآة.

فأول هذه الآداب اعتدال النفس :فلا ينظر الإنسان في مرآة هذا الفن وهو في خوف غالب أو غضب شديد أو حزن مستول .وثانيها ضبط الضوء، فإن كثيرًا من التلبيس يرجع إلى النور لا إلى المرآة .وثالثها ترك الإلحاح، لأن كثرة التحديق تورث أشكالًا لا وجود لها في السطح بل في التعب.

ومن أهم الآداب أيضًا ترك التوقع المسبق، لأن من دخل على المرآة يريد أن يرى شيئًا بعينه، شاركت نفسه في بنائه قبل أن تنعكس الصورة .ولهذا كان التقييد والمقابلة أصلًا لازمًا :فما يرى يكتب، ثم يقارن بما يقع بعد ذلك.

الباب الثامن

في العلامات التي تُعرف بها المرآة الصادقة من المرآة الملبِّسة

ليس كل ما يلمع في المرآة معتبرًا، ولا كل مرآة أهلًا لهذا الباب .ولهذا يفرق المؤلف بين المرآة الصادقة والمرآة الملبسة . فالصادقة يجيء منها الرد على نسق معلوم، لا يضطرب اضطرابًا شديدًا، ولا يبالغ في الغريب، ولا يغري الناظر بالعجائب كل يوم.

أما الملبسة فهي التي تضخم اليسير، وتخلط الحاضر بالبقايا، وتكثر فيها الوجوه الغريبة حتى يفتتن بها الجاهل .ومن علاماتها أن ما يظهر فيها لا يثبت، وأنها تستعبد الناظر، لأنه لا يكاد يفرغ من معنى فيها حتى تطالبه بآخر.

رواية في مرآتين

ومما رُوي في هذا الباب ما حدّثتني به أمّ الحسن عائشة بنت الفضل الورّاقة الدمشقية، وكانت امرأة حسنة العقل، دقيقة الملاحظة، نشأت في بيت كتب وورق، فألفت التثبت وكرهت التهويل .وكانت مع ذلك معروفة بحسن الهيئة وكثرة العناية بنظافة بيتها وتعاهد وجهها عند الصباح والمساء.

قالت :كان عندي في بيتي مرآتان :إحداهما قديمة ورثتها عن أمي في إطار من خشب الجوز، وقد ألفتها منذ صغري .وأما الأخرى فمرآة مستحدثة أهداها إليّ زوجي، وقال إنها من أجود ما جيء به من الزجاج، أشد لمعانًا وأحسن منظرًا .وكانت أكبر من الأولى وأحدّ بريقًا، حتى إني أعجبت بها أول ما نظرت فيها.

ثم نزل بي في بعض الشهور سهر متتابع بسبب مرض ولدي الأصغر .فلما نظرت في المرآة القديمة بعد ليال من ذلك، ردّت إليّ وجهي متعبًا كما هو :شيء من الذبول، ونقص في نضارة العين، وانكسار يسير في جمع القسمات .ثم نظرت في المرآة الجديدة، فإذا بها ترد إليّ صورة أشد من ذلك بكثير :رأيت في وجهي اصفرارًا غليظًا، وتحت عيني سوادًا لا عهد لي به، وخُيّل إليّ أن أحد جفني أخفض من الآخر.

ثم بدلت موضع المرآتين وعدت أنظر في اليوم التالي، فإذا القديمة ثابتة على طبعها، وإذا الجديدة تفعل ما هو أعجب من فعلها الأول :فإنها لم تردني هذه المرة منهدمة كما فعلت بالأمس، بل ردّتني على هيئة مشرقة أشد صفاء مما كنت عليه قبل سهر الليالي .فهاهنا دخل عليّ من المرآة الجديدة ما أخافني أكثر من إزعاجها الأول، لأن الذي يهوّن القبح إذا صدق أهون من الذي يزين الباطل إذا خدع.

وصرت أعود إليها مرة بعد مرة، وأنتظر :أتردّني على ذلك الحسن الطارئ أم على ذلك الانهدام الذي رأيته أولًا؟ وكلما عدت إليها أخرجت لي وجهًا غير الذي قبله .فعلمت أن عيبها ليس في أنها تقبّح فقط أو تحسن فقط، بل في أنها لا تثبت.

ثم جرّبت المرآتين على ابنة أختي وجاريتين عندي، فوجدت القديمة ترد كل واحدة منهنّ على معنى قريب مما يعرفه الناس منها، وأما الجديدة فكانت تزيد في إحداهن حتى تكاد تصير غير نفسها، وتنقص من الأخرى حتى توهم فيها مرضًا ليس بها . فعلمت أن ما كنت أراه منها ليس من باب الدقة، بل من باب التلبيس.

قال الجامع :وهذه الحكاية من أنفع ما يُذكر في الفرق بين المرآة الصادقة والمرآة الملبسة؛ لأن الصادقة لم تكن أكثر المرايا بريقًا ولا أشدها إدهاشًا، بل كانت أثبتها حكمًا وأقربها إلى ما يوافق الخارج .وأما الملبسة فلم يكن فسادها في أنها تكذب من جهة واحدة، بل في أنها لا تستقر.

الباب التاسع

فيمن نظر في المرآة فرأى غير عالمه

هذا الباب من أندر الأبواب وأخطرها، لأنه يقع على الحد الفاصل بين دقة الملاحظة وغواية الوهم .والمقصود به أن الناظر قد يرى في المرآة ترتيبًا لا يطابق ما هو حوله على الوجه المعتاد : موضعًا متبدلًا، أو هيئة غير مألوفة، أو شيئًا في الصورة يخرج عن عالمه القريب المعروف.

ولا يقبل المؤلف من هذا شيئًا إلا إذا توفرت فيه شروط صارمة :أن يكون الناظر عارفًا بالمكان والمرآة معرفة تامة، وأن يكرر النظر عند شروط متقاربة، وألا يعجل في الحكم.

رواية في لحظة من غير العالم

ومما رُوي في هذا الباب ما حدّثني به أبو زيد محمود بن فارس القاضي الحلبي، وكان رجلًا مشهورًا بالرزانة وشدة الضبط وطول التثبت قبل الحكم .وكان يسكن في دار قديمة بحلب، في غرفة علوية اتخذها لنسخ كتبه، وفيها مرآة قائمة إلى جانب رف صغير ورثها عن خاله، وكان يعرف موضعها وصفحتها معرفة من لازم الشيء سنين.

قال :كانت الغرفة التي أكتب فيها لا يدخلها غيري إلا نادرًا، وقد رتبتها على هيئة لا تتغير :الباب وراء ظهري إلى اليمين،

والرف بإزاء النافذة، والمرآة في الجانب الأيسر من الرف، والمصباح على منضدة قصيرة .وكنت لذلك أعرف صورة الغرفة في المرآة كما أعرف الغرفة نفسها.

فبينما أنا في ليلة من ليالي الشتاء جالس أراجع أوراقًا قديمة، رفعت بصري إلى المرآة من غير قصد، فرأيت الباب في صفحتها مواربًا، مع أني كنت قد أوصدته بيدي قبل قليل .فالتفت من ساعتي إلى الباب في الحس، فإذا هو مغلق كما تركته .فعُدت إلى الصفحة، فرأيته في المرآة على حال الإوارب لحظة، ثم لا يلبث أن يستقيم ويعود مغلقًا.

ثم مضت أيام حتى كان في ليلة أخرى، رفعت بصري إليها، فرأيت فيها الكتاب الذي على الرف مفتوحًا، مع أني كنت أعلم أنه مغلق .فالتفت إليه فإذا هو مطبق كما كان .وعدت إلى الصفحة فإذا الفتح ظاهر فيها، لا على جميعه، بل كأن بين دفتيه انفراجًا يسيرًا.

فعزمت بعد ذلك على الاختبار .فأوصدت الباب بيدي، ووضعت عند أسفله قصاصة صغيرة من الورق، وأطبقت الكتاب على الرف وجعلت فيه خيطًا دقيقًا .ثم جلست ونظرت في المرآة . فإذا الباب في الصفحة موارب مرة أخرى، والكتاب إلى جانبه كأنه قد فُتح قليلًا .فقمت من ساعتي، فنظرت إلى الباب فإذا القصاصة في موضعها لم تتحرك، ونظرت إلى الكتاب فإذا الخيط

في مكانه لم ينتقل .فعلمت أن ما في المرآة ليس من حركة الأعيان عندي، بل من ترتيب آخر ترده الصفحة.

ثم حملت المرآة نفسها وجعلتها في جهة أخرى .فلما أعدت النظر بعد يومين، وقع لي ما هو أشد من كل ما سبق .كنت جالسًا والكتاب في حجري، فرأيت نفسي في المرآة جالسًا كما أنا، غير أن رأسي في الصفحة كان ملتفتًا إلى اليسار، وأنا في الحس لم ألتفت بعد .ثم رأيت صورة يدي في المرآة تمتد إلى المنضدة قبل أن أمدها أنا في الواقع.

ولو أن الأمر وقف عند هذا لربما حملته على اضطراب من اضطراب الأعصاب، غير أني رأيت في تلك اللحظة نفسها هيئة رجل أو ظل رجل قائمًا خلف صورتي، في الموضع الذي لا يقف فيه عندي أحد .ثم ذهبت الصورة من المرآة قبل أن أراه في الغرفة .فبقيت مكاني زمانًا طويلًا لا أتحرك، لا من شدة الخوف وحده، بل من انكسار اليقين المألوف.

قال الجامع :وهذه الحكاية من أخص ما يوضح معنى الباب التاسع؛ لأن الراوي لم ير في المرآة نظيرًا بعيدًا لحياته، بل رأى غير عالمه في اللحظة نفسها :بابًا مواربًا وهو مغلق، وكتابًا مفتوحًا وهو مطبق، وصورته تلتفت قبل أن يلتفت، وهيئة رجل لا موضع لها في غرفته.

الباب العاشر

في كتمان هذا العلم عن غير أهله

يختم المؤلف أبواب كتابه بالكلام على كتمان هذا العلم، لا لأنه يريد الاحتكار، بل لأنه يرى أن هذا الباب إذا خرج من موضعه انقلب فتنة .فالناس فيه بين من يصدق كل غريب، وبين من ينكر كل ما جاوز عادته، وكلا الطرفين مفسد له.

ثم إن هذا العلم يتعلق بالنفس بقدر تعلقه بالمرآة .ومن لم يكن له ميزان في نفسه، ولا قدرة على التمييز، ولا صبر على التأجيل والمقابلة، لم يزده التفصيل إلا اضطرابًا .بل ربما اتخذ منه ذريعة للادعاء أو بابًا إلى التهويل.

ولهذا يرى المؤلف أن الذي يعطى للطالب أولًا هو الأصل والميزان :كيف يفرق بين الصادق والملبس، وبين الحال والوهم، وبين الأثر والانعكاس العابر .فإذا استقامت له هذه الأصول أمكن بعد ذلك أن يدخل في الفروع.

الخاتمة

هذا آخر ما جمع من هذا الكتاب في أمر المرايا، وما يتصل بها من ردّ الصور، وبقاء الأثر، وظهور الحال، ولمع الحوادث، والعوالم النظيرة، وآداب النظر، والتمييز بين المرآة الصادقة والمرآة الملبسة.

والذي يظهر من جملة الكتاب أن مؤلفه لم يرد أن يرفع المرآة إلى مرتبة المعجزة، ولا أن يردّها إلى مجرد أداة جامدة لا شأن لها إلا جمع ظاهر الصورة. بل كان يريد طريقًا وسطًا: يرى أن المرايا تختلف، وأن درجات الرد ليست واحدة، وأن في بعضها من الدقة أكثر مما تعرفه العامة، ولكن هذه الدقة لا تعمل على الإطلاق، ولا لكل أحد، ولا في كل حال.

فمن قرأ هذا الكتاب طالبًا للخرافة ضلّ، ومن قرأه على أنه لا يمكن أن يكون في المرآة إلا ما يراه كل إنسان في أول نظرة، حجب عن بعض معناه. وأقرب القراءات إليه أن يؤخذ على أنه محاولة لفهم درجات الظهور: كيف ينعكس الشيء، وكيف يبقى منه أثر، وكيف يظهر من الهيئة ما لا يظهر في غيرها، وكيف تتداخل النفس والسطح والضوء والموضع في إنتاج المعنى.

وقد أكثر الناس من استعمال المرايا، وقلّ من تأملها. وربما كانت أداة يومية مألوفة، ومع ذلك فهي من أكثر الأشياء قربًا من

السؤال القديم :كيف يظهر الشيء؟ وكيف يبقى أثره؟ وما الذي تراه العين بالفعل، وما الذي يزيده الموضع أو الضوء أو النفس؟

فإذا انتهى القارئ إلى هذا الموضع، فليعلم أن تمام هذا الباب لا يرجع إلى المرآة وحدها، بل إلى الناظر أيضًا .فإن النفس المضطربة تفسد أصدق سطح، والنفس المتزنة قد تستخرج من الشيء اليسير معنى لا يراه غيرها في الكثير .فالمعرفة هنا واقعة بين السطح والعين والقلب.

فهذا ما انتهى إلينا من هذا الكتاب، على ما فيه من نقص الأصل وتفرق المادة واحتمال الزيادة .فما كان فيه من صواب فمن فضل الله، وما كان من خطأ فمن تقصير البشر وعجزهم.

تمّ الكتاب بحمد الله.

القسم الأول

في أن الصورة لا تفنى من صفحة المرآة كما يظن العامة

يظن أكثر الناس أن الصورة لا تبقى في المرآة إلا ما دام الشخص واقفاً بوجهها، فإذا انصرف عنها زال أثره وانقطع حكم صورته منها، وعادت الصفحة كما كانت قبل النظر. وهذه النظرة تكفي في ظاهر الاستعمال اليومي، ولكنها عند أصحاب هذا الباب نظرة ناقصة، لأنها تبني حكمها على ما يظهر للحس في اللحظة، ولا تنظر فيما قد يبقى من الأثر بعد انطفاء الظهور.

قد يكون الأثر في طبقة باطنة من السطح

وليس مراد أهل هذا الباب أن الصورة تبقى في المرآة بقاء كالحروف في الرق، أو النقش في الحجر، بل المراد أن للصورة أثراً لطيفاً لا يدرك دائماً، ولا يظهر لكل ناظر، ولا يبقى على مرتبة واحدة، بل يضعف ويقوى ويخبو ويظهر بحسب صفاء السطح وطول الاستعمال، وهيئة الضوء، وطبيعة المقابلة.

لا يرى ذلك إلا من جرب طويلاً

رواية في بقاء الأثر

ومما روي في هذا الباب ما حدثتني به أم الحسن زينب بنت عيسى بن عبدون الموصلية، وكانت المرأة رزينة من بيت معروف بالستر واليسار، تعيم في الجانب الشرقي من الموصل، ولم تكن من النساء اللواتي يكثرن الخوض في الغرائب، بل كانت مشهورة بين جاراتها بصفة التدبير، وحسن الملاحظة.

الباب الثالث

في مرايا المواضع ، وكيف تُري ما جري في البيت قبل ساكنه

اعلم أن من المرايا ما لا يختص برد الوجوه والأحوال الحاضرة ، بل ينسب بصره إلى ما كان في ذلك الموضع من قبل ، فيري أموراً قد جرت ، وكأنها ماثلة بين يديه . وليس هذا مما يقع في كل موضع ، ولا في كل بيت ولكن للمرايا طبائع ، وللمواضع أحوال ، وربما اجتمع للمرآة والموضع وضع يفتقر عنده ذلك .

قال بعضهم : هذه المرايا مرآة الزمان الماضي .

وقد جربت ذلك في دار كبيرة كانت بخط الموصل ، قد سكنها قوم من قبل ، فلما انتقلنا إليها بعد خلو أزمانا ، وجدت في طرف من أطرافها مرآة قديمة الإطار ، فلما صقلتها ووقفت أمامها في ضوء السراج ، رأيت في ظهر الدار رجالاً يمرون ، وامرأة تفتح الباب ، وسمعت نغماً خفيفاً مع ان الدار خالية ، والسراج وحده حاضر .

وهذا لا يُري لكل أحد ، بل لمن صفا نظره ، وهدأت نفسه ؛ ولم يكن طلبه فضولاً ولا عبثاً . فمن نظر يبتغي اللهو واللعب لم ير شيئاً ، ومن نظر يطلب حقاً ، أو خبرة ، أو علماً ، فتح له باب من ذلك .

تنبيه : لا يطيل الناظر في ذلك ، فإن الإطالة تضعف البصر والروح .

وينبغي للباحث أن يتحد قبل النظر آداباً : من طهارة المكان ، وسكون النفس ، وحسن النية ، ولا يكثر من السؤال ، فإن كثرة السؤال تعميت عن الجواب .